

أبو أيوب المورياني

لله استاذ محمد أحمد برانس

ليس الارتقاء إلى المناصب من الأمور الهينة بحيث يستطيع أن يرقى إليها من يريد، لو كان الأمر كذلك لرأيت الناس كلهم سادة، ولما كان فيهم سود، ولكانوا جميعا شرفاء، وما كان فيهم مشروف، ولكن الارتقاء إلى مثل تلك المناصب يتطلب نبوغا خاصا يشبه أن يكون شذوذا أو يشبه أن يكون خروجا على مألوف الطبيعة، وليس ذلك فيهم جميعا وإنما هو في الكثير الأغلب فقد يرقى إلى منصب رفيع ولا سيما في زماننا هذا من لم تؤهله مواهبه العلمية أو الأدبية أو الفنية، وقد يرقى إليه من يكون ذا مؤهلات من جاه أو حسب أو صداقة خاصة، أو من يصطنع نوعا خاصا من الأخلاق يجعل أولياء الأمر يدفعونه إلى المركز الرفيع طائعين أو مكرهين. ولكنهم حين يخلون إلى أنفسهم يكونون غير راضين فلا ضميرهم يرتاح إلى ما صنعوا، ولا الوطن منتفع بهم، ولا الله راض عنهم، وهؤلاء في الغالب لا يظلم مادفعهم إلى المرتبة العلمية من جاه أو حسب أو صداقة أو غير ذلك يحجب عن الانظار سوماتهم، فإنهم لا يلبثون أن تظهر عوراتهم ويفضح أمرهم ويؤموا بالفشل الذي يعقبه الخزي والعار.

وليس كل الذين منحهم الله ذلك النبوغ الخاص يوضعون في الموضع الذي يجب أن يكونوا فيه، فقد لا يستغلون نبوغهم بالعمل ويركنون إلى الكسل. وقد يتبعون في الناحية التي وقفوا أنفسهم عليها، ولكن الله لم يهب لهم من

ياخذ بيديهم ، أو يفسح السبيل أمامهم ، أو يلفت نظر أهل الأمر إليهم ، أو
أي شيء غير ذلك من الأمور التي تلبسها نحن الآن في حياتنا . ومثل هؤلاء
إن أخطأهم شيء فلن يخطئهم أنهم يفعلون حيث يكونون — وأنهم إن ذهب
إلته لهم خلقا حسنا ومنتعم بالرضا بقضائه وقدره — نعم بالهم واطمأنوا
وقنعوا ، والقناعة إحدى السعادتين .

ooo

ونحن إذا صفحنا كتب التاريخ رأينا كثيرا من الذين ولوا أمور الناس
وبسطوا سلطانهم كانوا يتمتعون بشخصيات قوية ثبتت على مجادلات المنافقين
وبقيت حتى أرت في التوجيه السياسي في زمنهم . واصل من هؤلاء متى حدثنا
نشأ في قرية من قرى الأهرار . اسمها الموريات (١) فنسب إليها وعرف
بالمورياتي واسمه سليمان بن مخلد ، وكنيته أبو أيوب .

تعلم أبو أيوب العلوم كلها — تعلم الطب والنجوم والحساب والكيمياء
حتى السحر ، وكان له في كل علم نظر إلا الفقه . وكان إلى تمكنه من العلوم
المختلفة خفيلا على القلب ظريفا ، وكان ظرفه وجماله على ما يظهر وراثيا غير
يكتمش ؛ لأن هذا كان ظاهرا فيه وفي أخويه : مخلد ، ومسعود ، وكان ذلك سببا
في أنهم جميعا نالوا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما .

وكانت لآبي أيوب صلة خاصة بالمنصور ، تحف على قلبه وقربه إليه ،
وأجلسه في حضرة الخلافة ، وكان المنصور قد عبد الملك بن حميد كتابته
ودواوينه ، وكان لعبد الملك هذا عند الخليفة منزلة خاصة ، جعلت عبد الملك
يسوق عليه دلاله ، فيتناقل عنه ويتفلس عليه ، ولكن لكل شيء غاية ، ولا سيما
هذه الناحية التي قد تفتح لأعداء عبد الملك ثغرة يتفنون منها إلى قلب المنصور

(١) الموريات : بهم الميم وسكون الواو وكسر الراء . وفتح الباء المثناة من تحتها ويعد الألف توت

(وفيات الأعيان) .

وبخاصة أن حساد ذوى الخطوة عند الملوك كثيرون في كل زمان ومكان .
 تبادى عبد الملك في التناقل عن المنصور والتفعل عليه، حتى استنقل المنصور
 ذلك منه ، وكرهه مع استصلاحه له وسكونه إليه ، وأمره أن يتخذ له نائباً
 ينوب عنه إذا غاب عن مجلس الخليفة ، فاتخذ عبد الملك أبا أيوب وكيلاً له
 يحضر عنه إذا غاب — وما كان أكثر أن يغيب — ولعل المنصور هو الذى
 أشار بنبابة أبا أيوب عن عبد الملك ؛ لما له فى قلبه من المنزلة ، وهو خفيف
 على القلب ظريف ، متأت لما يريد منه المنصور ، موفق فى عمله .
 شاء الله بعد ذلك أن يهيئ الظرف الذى يصعد فيه نجم أبا أيوب، ويتمكن
 مكانه عند الخلافة ؛ فاعتل عبد الملك من تفرس كان به ، فلزم داره ، فقام
 بالعمل وكيله ونائبه أبو أيوب ، وكان ناجحاً فى أدااته ، فعلا نجمه — وذاع
 صيته ، وزاد محله — عند المنصور — حتى قلده وزارته ، وقوض إليه أمره
 كله ، وترك له تدبير الشئون .

قدمنا أن أبا أيوب من قرية من قرى الأبرواز ، اسمها الموربان ، وأنه
 نسب إليها ، وأنه كان له أخوان ، وكان له أقارب أدنون وأبعدون ، فما كاد
 يتولى الوزارة والدواوين للمنصور ، حتى جاء بأهله وصرفهم فى الأعمال ف عزل
 من عزل من غير أهله ، ثم ولى من ولى من أهله وتمكن داه المحسوية من
 نفسه ، حتى كان جميع أهله يتولون أعمالاً بصرفونها ، ونال أكثرهم من الدنيا
 ونعيمها حظاً جسيماً . فعل ذلك كله على علم من المنصور ، ولكنه كان يفضل
 عنه أو يتغافل ، مع أنه « كان من الحزم ، وصواب الرأى ، وحسن السياسة
 على ما تجاوز كل وصف ، ولذلك عجب الناس أشد العجب حتى اعتقدوا أنه
 لا بد أن يكون فى الأمر سر ، وبحشوا عن ذلك فلم يمتدوا إليه فقالوا : كما تقول
 العامة : إن أبا أيوب سحر المنصور ، واتخذ دهننا مسحه على وجهه ، وبطلبه

على حاجيه إذا أراد الدخول عليه؛ فسار في العامة، دهن أبي أيوب، وضرب به المثل (١).

ولعل للمنصور في ذلك عذراً فإن أبا أيوب فوق ما قدمنا من أنه كان ظريفاً خفيفاً على القلب متأثراً لما يريد المنصور — كانت له بالمنصور حرمة، وربطه به قبل الخلافة سبب اعتقد المنصور أنه دين في عنقه لأبي أيوب، ولا بد من الوفاء به، وقد يكون من الوفاء أن يوليه وزارته ودواوينه، وأن يطلق يده في تدبير شئون الملك، وأن يدعه ينتفع هو وينفع من حوله من أهله وخاصته إلا أن هذا السبب ما كان يجعل المنصور يطلق يد أبي أيوب بحيث يعتقد أنه ليس عليه رقيب، فيطغى ويبغى ويظلم ثم يؤخذ بطغيانه وبغيه وظلمه كما سيأتي؛ وإنك لتعجب إذا هرقت السبب الذي تظن أنه هو الذي حدا إلى ترك أبي أيوب، وإطلاق يده. إنه لم يكن أكثر من أنه أنقذه من أمير خكم عليه أن يضرب، فحسى ظهره من الضرب بالسياط، وقد يكون السبب معقولا إلى حد ما إذا كان حصى صدره من الطعن بالرمح. أو حصى عنقه من الحزب بالسيوف. فيكون في رعاية ذلك الجليل له بعض العذر؛ أما الضرب بالسوط فسيبه أن عبد الله بن معاوية كان غلب على أصبهان وبعض فارس وبعض الأهواز أيام مروان، فوفد إليه الهاشميون أجمعون من بني علي وبني العباس وغيرهم، واستعان بهم عبد الله في أعماله، وكان من الواقفين إليه أبو جعفر المنصور، فقلده بعض الأعمال، فأخذ المال وحمله إلى البصرة وسار إليها، وكان عامل مروان على البصرة قد وضع الأرصاء على كل من يمر من عمال ابن معاوية فقبض على المنصور وحمل إلى عامل مروان، فقال له: وهات المال الذي اختنته، فقال: لا مال عندي، فدعا له بالسياط، فقال أبو أيوب: — وكان كاتباً لعامل مروان — أيها الأمير: توقف عن ضربه، فإن الخلافة

(١) مروج الذهب ٣٠ ص ١١٢، والوزراء والكتاب ص ٦٥، وابن خلكان ١٠ ص ٢٦٦

إن بقيت في بني أمية، فلن يسوغ لك ضرب رجل من بني عبد مناف، وإن صار الملك إلى بني هاشم، لم تكن لك بلاد الاسلام بلايا؛ فلم يقبل منه، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطا؛ فلما اتصل ضربه إياه، قام إليه أبو أيوب، فألقى نفسه عليه، ولم يزل يسأله حتى أمسك عن ضربه، وأمر بحبسه (١). إلا أن المضربين تحركوا لضرب أبي جعفر، وثاروا، وتجمعوا وثاروا إلى السجن، وكسروه، وأطلقوه، فذهب إلى البصرة، وكان يتذكر صنيع أبي أيوب، ويشكره له حتى ظهر أمره، وقربه إليه، ثم ولاة الوزارة، واختص به.

ويبلغ من خصائصه به أن أم سليمان الطلحية اتخذت لأبي جعفر مجلسا في المصيف، جعلت فيه الرياحين وجلت سائر الطيب والتلج، فلما صار المتصور إلى ذلك المجلس أعجبه برده ولذته حسنه، إلا أن ذلك الإعجاب وتلك اللذة لم يبلغا من نفسه المبلغ الذي يرجوه لها؛ لأن أبا أيوب غائب عن مجلسه، ولذلك يقول لصاحبة المجلس: إنه لا ينتفع بما هو فيه من يردو حسن، فتعجب المرأة وتسأله عن السبب، فيجيب: أنه ليس معه أبو أيوب، فيحدثه ويؤنسه، ولكن المرأة تصرح أنها ماهيات المجلس إلا السرور الخليفة، فإذا كان سروره لا يتم إلا بحضور أبي أيوب، فليس عليه بأس أن يبعث إليه من يحضره ليحدثه ويؤنسه، فبعث إليه، فحضر، فما كاد يراه حتى تهلل وصاح به: يا أبا أيوب: « كما رأيت طيب هذا الموضع ولذته، لم انتفع به حتى تكون معي فيه، فدعا له وأقام معه، فهذا هو أبو جعفر لم يطب له مجلس توافرت له فيه أسباب الراحة والمتعة والسرور حتى يحضر أبو أيوب ليحدثه ويؤنسه.

٥٥٥

استقام الأمر لأبي أيوب، وتولى الوزارة والدبوان، وقام على تدبير

يقع فيه — جعل أبا جعفر يجد في نفسه على ابن المقفع . وكان سفيان ابن معاوية يظن على ابن المقفع أشياء منها أنه كان يسأله عن الشيء بعد الشيء . فيجيب فيسخر منه ابن المقفع ويهزأ به ، ويضحك ويتغامر به ، ثم يصيح : أخطأت ، فيغضب سفيان ويفتري عليه ما يهيجه ، وينطق لسانه بأقبح الشتائم وأشدها على الرجال ، ومنها ما كان من معاوية ابن المقفع لعامل نيسابور ضد سفيان ، وكان قد سفر بينهما وظل يطاول سفيان ويراوغه ويدافعه ويعلله حتى استظهر المسيح بن الحواري عامل نيسابور ، وقوى أمره ، فامتنع على سفيان وصرفه عن نيسابور مرغما منهزما مكسورا الترقوة .

فلما علم سفيان ما نبت من الموحدة على ابن المقفع في صدر المتصور ، شجعه ذلك على الانتقام منه متى أمكته الفرصة ، وقد هيات له الأيام ما أراد : فإن عيسى بن علي أرسل ابن المقفع إلى سفيان ليسفر بينهما في أمر من الأمور ، وكان ابن المقفع كان يحس في نفسه ما يضره له سفيان من موحدة وعداوة ، فتأبى ولكن عيسى أمره أن ينطلق إليه ؛ لأنه يعلم مكانه منه ، فلا يتعرض له بسوء ، وانتهى أمر هذه السفارة بقتل ابن المقفع على صورة من أشنع الصور وأبشعها وأقساها وأفظعها ، فقد كان يقطع أعضائه عضوا فعضوا ، ثم يلقى كل عضو يقطع في تنور مسجور ، فيحترق وهو ينظر إليه .

علم عيسى بن علي بمقتل كاتبه ابن المقفع ، فحزن عليه ، واستعظم أن يفعل سفيان ذلك ، وأرسل إليه أن يحل عنه إن لم يكن قتله ، ويطالبه بدمه إن كان قتله ، فأبى سفيان أن يكون رآه ، ثم استشار أحد خالصائه فقال له : « إن عيسى لا يقدر لك على مضرة ههنا لأنك الوالي ، ولكنه سيكلم أمير المؤمنين بالكوفة ، وليس أحد أخوف عليك من أبي أيوب سليمان بن أبي سليمان الكاتب . فإنه إن عاونه ضرك ، وإن كف عنك رجوت ألا ينال منك عيسى ما يريد . »

فهذا سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، يشير عليه صفيه ونجيح وخليه
عمر بن جميل أن يلوذ بأبي أيوب، فإن أعانه ودفع عنه عند الخليفة نجما من
يد عيسى بن علي، وإن لم يدفع عنه لم يفلت من يده.

خرج عيسى إلى المنصور يشكو إليه عنف سفيان وظلمه وقتله ابن المقفع،
فأرسل المنصور إلى سفيان من قيده وحمله إلى المنصور وكان معه رجال من
أهل بيته وخاصته. فهذا هو المنصور أغضبه عيسى بن علي على سفيان فمن
الذي ينقذه؟ لأمل له في ذلك إلا عند أبي أيوب صاحب الحول والطول،
والقابض على الزمام ولكن من له بأبي أيوب وكيف يستميله إليه، أرغبة أم
رهبة؟ إنه كتب إلى صديق له من قبل ييلفه أن عيسى بن علي اتهمه في أمر
ابن المقفع، ولكن هذا لا يكفي. أخذ يقلب الرأي على وجوهه المختلفة هو
ومن معه من أهل بيته وخاصته: « فأشار عليهم رجل منهم أن يلقوا أبا أيوب
فيكلموه كلاما خشنا، يرهب معه منهم، ويتخوف ناحيتهم، وألا يسرفوا
عليه فيحفظوه، وألا يضعفوا في مخاطبته فيطمعوه. ففعلوا ذلك. وقال له
سفيان: أنا أعلم أني إن سلت فبك أسلم، وإن عطيت فوائقه إن وأهل بيتي
نعلم أني بك عطيت، وبرأيك أقتل، فارتاع أبو أيوب، وقال: « أنا لست
نعم؛ لأنك تقدر على أن تدفع عني، فقال لست أدع القيام بأمرك ».

وأيا كان السبب في قتل ابن المقفع فإنه إذا صحت هذه الرواية، فإنها
تدل على أن سفيان بن معاوية وهو ذو مكان ورياسة وجلال وتقدم في قومه
وهو صاحب عمل وأمير إمارة، وهو حسيب نسيب — قد استعان بأبي أيوب
ليكون نصيره عند المنصور وكان يعتقد أن المستعان به معان، وأن الملتجئ
إليه ناج، وأن اللاتذ به معصوم. لذلك لم يتردد في أن يمد يده إليه بطلب المعونة
ويرجوه أن يقف بجانبه ضد عيسى بن علي، وإن قيل: إن الموجدة التي كان
المنصور يجدها على ابن المقفع ساعدت أبا أيوب في شفاعته، وقوت مركزه

أمام المنصور ضد عيسى — رددنا ذلك بأن المنصور وإن كان يجد على نفسه من ابن المقفع ، إلا أنه ربما كان يجب أن يستبقه ذخراً لينتفع به ؛ لأنه يعلم مكاتته في الكتابة ومنزله من الكتاب ، حتى إن بعضهم روى أن أبا أيوب كانت له يد في قتل ابن المقفع ؛ لأن المنصور قال له يوماً : — وقد أنكر عليه شيئاً — كأنك تحب أنى لا أعرف موضع أكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاي ، فلم يزل أبو أيوب خائفاً له يسعى ويدب في أمره حتى قتله .

من هذا يتبين أن المنصور كان يحل ابن المقفع ، ويعرف له مكاتته ، وكان يرجو أن ينتفع به يوماً من الأيام ، فلما سمع ما فعله سفيان لم يعجبه ذلك منه ، وأرسل إليه أبا الحصيب وكتب إليه : « قد وجهت إليك بابي الحصيب ابن ورقاء ، فإن كان ابن المقفع حياً فادفعه إليه ، واثبت على عمالك ، وإن لم تدفعه إليه ، فقد أمرته بعزلك وبمحملك » .

إذن يشفع أبو أيوب في سفيان ، ويدفع عنه ، وينكسر عن نصرة عيسى ابن علي حتى يتأثر المنصور بدفاع أبي أيوب ويطلق سفيان ، ويعود إلى رأيه الأول فيه .

وهذا أبو جعفر يريد أن يقتل أبا مسلم ، فلم يجد من يستشير به ويستشير له سوى أبي أيوب ، فهو يدفعه ليشاور سلم بن قتيبة في أمر أبي مسلم ، فيشير سلم بالتجاوز والصفح عن ذنبه ، ثم يدفعه المنصور إليه مرة أخرى ويعلمه أنه يشاوره بأمر أبي جعفر ، فيقول سلم : « لا يصلح سفيان في غمدي ، ثم يتلو : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولا يزيد . ثم يدخل أبو أيوب يوماً على أبي جعفر وبين يديه كتاب من أبي مسلم ، فدفعه إليه فيقرؤه ، ثم يستمع

إلى المنصور يقول : والله لئن ملأت عيني منه لأقتله ، فيوجس في نفسه خيفة إن قتل أبو مسلم ، ولكن الخليفة مصمم على قتله ، فلا بد أن يحتمل له أبو أيوب على ذلك حتى لا تكون فتنة ؛ لأنه يعلم منزلة أبي مسلم من نفوس الناس عامة ، وأتباعه خاصة ، ويعلم أنه لو مثل على الوجه الذي يزيد المنصور ، وقع بين الناس تخليط كثير لا يسلم منه هو ولا المنصور وجرى في نفسه مهمة طويلة قال فيها : « والله ما أرانا نسلم ، وما أحسب أصحاب أبي مسلم ، يرضون إن قتل ، أن يدعوا هذا على الأرض ولا أحدا من أسبابه » هنا ينصرف أبو أيوب من حضرة المنصور ، ويمتنع عليه النوم ليلته ، ويفكر طويلا في كيفية استقدام أبي مسلم ، فيرى أن خير طريقة أن يقدم آمنا على نفسه ، فيكون ذلك أسهل لما يراد منه أو يراد به ، أما إذا استقدم نافرأ مستوحشا ، فقد يكون وراه شر مستطير . ولأجل أن ينقذ أبو أيوب سياسته أرسل إلى أبي مسلم من يأتي به ، ويعلمه : « أن أمير المؤمنين قد عزم أن يوليه ما وراه بابه ، ويربح نفسه ويتودع » وكان أبو مسلم إذ ذاك حسن النية فصدق كلام الرسول ، وقصر في التحرز والتأهب ، وجاء إلى المنصور متخدعا بما ألقى إليه ، ولقى حقه ، ولم يحدث لقتله كثير مما كان يتوقمه أبو أيوب بحسن حيلته وجميل تصرفه ، حتى إن رجلا دخل على المنصور فرأى أبا مسلم مقتولا ، فتأوه واسترجع ، وكان أبو أيوب حاضرا فجهه بكلام أخمه ، وردده إلى صوابه إذ قال له : أشرت بقتله حين خالف ، حتى إذا قتل تأوهت واسترجعت ، وذلك يغضب أمير المؤمنين ، فبهت الرجل بغلظته وقسوته ، فاضطر إلى أن يقول كلاما يصلح به ما أقصد ، ويرضى أمير المؤمنين وكذلك استطاع المنصور بحسن تدبير أبي أيوب أن يقتل أبا مسلم وكل ما حوله منه وله وإليه . وكان إذا رأى أحدا ينكر عليه ما فعل أو يخطئه في معالجه أبا مسلم - تعيظ عليه ودعاه به وأغلظ له وتهده وتوعده ، فيوجس

في نفسه خيفة منه، ويرتد على وجهه كاسفاً لا يستطيع أن يبوح بشيء مما في نفسه.

ولقد أصبح أبو أيوب يحترمه الخاصة من أهل بيت الخلافة وغيرهم حتى من كان يخشاهم سيده الخليفة المنصور، فذلك عبد الله ابن مروان بن محمد يذهب إلى أبي أيوب، ليقضى حاجة له عنده، ثم يقوم عبد الله لينصرف من حضرة أبي أيوب، ويكون الشكر على قضاء حاجته أن يأخذ برأس أبي أيوب ويقبلها.

أتدري من هو عبد الله هذا؟ هو عبد الله بن مروان، كان أبوه مروان ابن محمد من خلفاء بني أمية. ويسمع المنصور خبر تقبيله رأس أبي أيوب، وكان متكئاً فيستوى جالساً مما ناله من العجب، ويسأل مندهشاً: قبل عبد الله رأس سليمان؟ فيجاب: نعم، فيرفع يديه، ويحمد الله، ثم يخر ساجداً شكراً لله، ويبطل السجود لأن الله مد في عمره حتى يقبل عبد الله رأس كاتبه ووزيره.

وكان لذلك أثر عظيم في نفس المنصور مع أن كثيراً يقبلون يد الوزير ورأسه وقدمه، إذا قضى لهم حاجتهم، إلا أن عبد الله هذا كان ابن أمير المؤمنين مروان، وخرج يوماً يركب، وأمر الجند بالزينة، فلما علم الناس أن ابن أمير المؤمنين يركب، انجفلوا للنظر، وصارت لهم حركة، فخرج المنصور فيمن خرج - وكان يومئذ بدمشق - ليمتنع نظره برؤية ابن أمير المؤمنين وهو يركب، فازدحم الناس ازدحاماً شديداً على رؤوس الطرق ومنعرجاتها، وكانت دابة المنصور ضعيفة، فسقط عنها، وانكسرت ساقه، وغشيه الناس واقتحموه، ولكن الله سلم، ومكث دهرأ عليلًا، لا تبرأ علة، وبقى أثر ذلك الكسر في ساقه حتى شاء الله أن يتم نعمته عليه فيصير الملك إليه، ويقبل ابن أمير المؤمنين رأس كاتبه بعد أن يسعى إليه في قضاء حاجته.

إن الأمور تجري على ما يريد لها صاحبها، فإن أحسن السيرة وأخلص في عمله، كان النجاح مكتوبا له، وإن لم يخلص في عمله، ولم تجر الأمور على وجهها، انعكست عليه الأمور، وتحطمت الآمال، وكل من يحاول أن يستمر ما يجنيه من سيئات، ويخفي ما يجترح من آثام، فإن الدهر كفيل بأن يظهر كل شيء على حقيقته، ولا سيما إذا كان من القوم الذين تتصل أعمالهم بمصالح الجمهور، أو بالسياسة العامة للدولة، فإنه إن ظلم أو سلب و اغتصب، أو حابي أو دلس، أو دس، أو نافق، أو فعل أى شيء من الأشياء التي لا يجوز أن تكون من مثله — إنه إن فعل شيئا من ذلك، فما أخطأه من شيء، فلن يخطئه أبداً أن يقع في شر ما فعل، وأن ينكشف القناع عن كل ما حاول إخفائه، وإذا ظهرت زلة تابعت الزلات. وأبو أيوب: هيات له المقادير أن يكون وزيراً، ولكنه كان وزيراً لابن جعفر المنصور، وهو الخليفة المنك المجرب الذي حلب الدهر أشطره، والخليفة الصالح التقي المجتهد في دين الله، والخليفة الحريص على مصالح المسلمين وأولهم، والخليفة اليقظ الذي يطلع على كل صغيرة وكبيرة تجري في رعيته، والخليفة الذي يحرص على مال المسلمين حرصاً جعل بعض الناس يبخلونه، والخليفة الذي قضى على أبي مسلم الخراساني الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، والخليفة الذي كان يعتقد أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا العدل، والخليفة الذي كان ينصح ابنه أن يستديم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتألف، والنصر بالتواضع.

هذا هو الخليفة الذي هيات المقادير لابن أيوب أن يكون كاتبه ووزيره، وكان — كما قدمنا — ظريفاً خفيفاً على قلب المنصور، حسن التأتى لما يريد، فعظمت مكانته عنده، وقدمه على غيره، وحظى في مجلسه، وكانت له به ثقة لائح، واسكن أباً أيوب كان سيء الحظ، سيء التصرف، شرها، خائناً،

صغير النفس؛ واستطاع بدهائه أن يخفي على المنصور سيئاته مدة، ولكنه لم يلبث أن اقتضح أمره، فسأمت عاقبته، وتكل المنصور به وبأسرته على ماسياتي بعد.

وإذا أردنا أن نحصى على أبي أيوب ما اجترحه من الآثام خفية - طال بنا القول، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقول: إنه ما كاد يتولى الوزارة حتى جاء بأقاربه، وولى كلا منهم أمراً من أمور الدولة، وصرفهم في الأعمال، فنالوا من الدنيا ونعميها حظاً جسيماً، ولم يعترض عليه أبو جعفر، حتى تعجب العامة، وأشاعوا أن أبا أيوب ساحر، وأن المنصور مسحور وأنه كان يسعى على غيره من وجوه الرجال حتى يقصيمهم عن المنصور لكيلا ينافسوه في الحظوة لديه، وكان يختص به، ويقلب عليه بعض من تسوء أعمالهم وأخلاقهم، فيشرون ويحرصون على أخذ الرشوة ممن يلونهم، فهذا محمد بن الوليد يكتب على لسان أبي أيوب إلى طريف مولى أبي جعفر، ومتولى بريد مصر والشام والجزيرة، ويطلب إليه أن يرسل إليه مئة ألف دينار، فيحملها هذا إليه، وهو يعتقد أن أبا أيوب هو طالبها وأراد الله أن يكشف تلك الخيانة، فوشى أبو أيوب بطريف عند المنصور، وحمله على مكروهه، فصرفه المنصور عن عمله، وقلد غيره، وأمر بحاسبته، فحاسبوه، وضيعوا عليه، حتى أحفظوه عليهم، فصار إلى أبي جعفر، وأطلعه على الكتاب الذي كتبه إليه محمد بن الوليد عن لسان أبي أيوب يطلب فيه مئة ألف دينار، فلما وقف عليه المنصور دفعه إلى أبي أيوب، فعرف فيه خط كاتبه وختمه ولكنه أنكروا عليه بشيء مما فيه، فغضب أبو جعفر، وقال: هذا أشد الأمرين - مئة ألف دينار تؤخذ، ولا يعلم عليها. ولما انصرف محمد بن الوليد من حضرة المنصور - أراد أن يعرف حقيقة هذا الخطاب، فاستدعى محمد بن الوليد، وسأله، فقال: نعم هذا كتابي، وأنت أمرتني به، وكأبره وبهته، ففكرة

أبو أيوب مراجعته ، لتلا يسعى به ، فوكل به ، وحبسه ، وحال بينه وبين الناس جميعا ، حتى لا ينقل عنه ، أو ينقل إليه فتمكنه الفرصة بالوشاية والسعاية .
وهذه غلطة أبي أيوب ، فلما أنه استكتب رجلا من الاطهار المخلصين
لأحسن إلى نفسه وأحسن إلى أبي أيوب ، فما كان يقشه في عمل ، وما كان
يصبر على إثم يقترفه ، وما كان يقصر في إسداء النصيح إليه . وماذا يجدى أنه
احتال لقتله ، وقد وقف المنصور على حقيقة الأمر ؟ وهو إن استطاع أن
يصرفه عنه ، فإن الأثر يبقى في ذهنه ، حتى إذا تجمعت الأسباب كان هذا سببا
فيضم إليها ويقورها ، ومع هذا فإن محمد بن الوليد لم يترك نفسه يقتل من غير
أن يسود صحيفة أبي أيوب عند المنصور لو نجح في السعاية فإنه دفع إلى من
وكل يقتله قرطاسا ، وطلب إليه أن يقدمه إلى أمير المؤمنين ؛ وأمير المؤمنين
إذا قرأ الخطاب خلع أبا أيوب وولاه مكانه ، إلا أن الرجل كان مخلصا لأبي
أيوب ، فإنه أخذ القرطاس منه وضرب عنقه ، ثم حمله إلى أبي أيوب فقراه ،
فراى فيه كل عظمة من أمره ، مما لو وقف عليه أبو جعفر لكان سينا في
التسجيل به .

وكان يخلع على المختصين به والمقربين إليه ثوب التعميم ، ويوليهم الأعمال
التي تدر عليهم رزقا واسعا رغيدا ، شأنه مع أهله وذوى قرابته ؛ فهذا صديق
نصراني كان نجارا له رقيق الحال ، فيوليه بعض الأعمال التي يصيب منها مالا
كثيرا ، يجعله يبتاع لنفسه سمكة واحدة بثلاثين درهما ، لتكون طعاما له ،
وكان فردا ليس له أهل ولا عيال ، ويعلم بذلك المنصور ، فأخذه ويعنفه ،
ويسأله عن ماله وعن الطريق التي حصل عليه منها ، فيعرف أنه كان نجارا لأبي
أيوب وذيره ، وأنه كان رقيق الحال فولاه بعض الأعمال ، فأصاب منها
عشرات الألوف من الدراهم ؛ فلم يرض المنصور أن يترك له ذلك المال ،
وليكفه يرده إلى بيت المال لأنه اختبأه من مال المسلمين ، ولعل شيئا وقر في

نفس أبي جعفر من أبي أيوب بسبب ذلك .

وكان أبو أيوب لا يكفيه ما يفعله هو وأقاربه وأصدقائه في الإصابة من مال الدولة بحق وبغير حق ، فإنه تطاول على المنصور نفسه ، وكان يختانه ، ويكذب عليه ، ويأخذ منه ماله - فهذا هو المنصور له ابن رقيق الحال يحبه كما يحب إخوته ، ويتمنى له من الخير والسعادة ما يتمناه لهم ، ولكنه يقطع إخوته جميعا من دونه ، فيعز ذلك عليه ، ويفكر في إقطاعه كما أقطع إخوته ؛ فيتقدم أبو أيوب إلى المنصور بدهائه ولباقته وظرفه وخفته ، ويخبره أنه أصاب لذلك الابن ضيقة خصبة ، يفتديها دجلة ولا عيب فيها إلا أنها دثرت رسوما ، وهجرت ربوعها ، وانطمست أنهارها ، فهي في حاجة إلى الإصلاح بتكلف ثلثمائة ألف درهم ، فإذا شاء أمير المؤمنين أن يقطع ابنه المسكين هذه الضيقة ، وأن ينفق عليها تلك الدراهم التي تبلغ ثلثمائة ألف درهم - فعل ، ونحن له طائعون . فظن المنصور أنه مخلص فيما يقول ، فأقطع ابنه الضيقة ، وأمر بالمال لإصلاحها . والذي حمل أبا أيوب على المغامرة في ذلك ، أن الرخاء عم ، والأسعار رخصت ، فطمع هو في أن يستغل هذه الحالة ، ليكسب من ورائها شيئا ، فسولت له نفسه أن يشتري طعام سواد الكوفة ، وسواد البصرة طمعا في الربح ، فاشتراه ، وحرر المنصور عليه بذلك الموائيق ؛ إلا أن الأسعار ظلت ترخص ، والمنصور نشط في مطالبته بالمال الذي تعهد به ، فكان يدفع من ماله الخاص حتى تحمل شيئا كثيرا من الخسارة ، فالرخص متتابع ، والإرهاق بالمطالبة متتابع . فلما أراد أن يعرض بعض ما خسره ، لجأ إلى تلك الحيلة الدينية التي يدلس بها على أمير المؤمنين وينشئه ، وما كان أغناه عن ذلك لو أنه أحسن التصرف في الأمور ، وراقب الله والضمير والوطن والحليفة ، فيما يأتي وما يندري .

أخذ أبو أيوب المال ليصلح به الضيعة . ولكنه أخذه لنفسه ، وأدى منه صدرا من خسارته في الطعام ؛ ولما حال الحول وطال به المتصور بغلة الأرض — حمل إليه عشرين ألف درهم على أنها غلتها ، فسر المتصور بذلك ، إلا أن أمرا مثل هذا ما كان ليخفى عن المتصور مهما حاول أبو أيوب في كتمانها ، لأن حوله من العيون والأرصاد ، من يكشفون الخبآت ، ويظهرون الدفاتن ، مهما طال بها الزمان ، ولذلك لم يعدم أن يجد من يسعون لأبي جعفر بأمر هذه الضيعة ، وأعلمه أن أبا أيوب أخذ المال لنفسه ، وأنه غره وخدعه من هذه الناحية ، فأراد أن يعرف الأمر بنفسه ، وأن يستوثق من حقيقة الأمر ، ولعله كان يستبعد أن رجلا مثل أبي أيوب يفعل مثل هذا الذي بلغه ، فتجهز للشخص إلى تلك الضيعة ، فلما علم بذلك أبو أيوب كتب إلى وكلائه : أن يبنوا على دجلة في طريق أبي جعفر قرى من اللبن والقصب ، وأن يغرسوا نخلا وسدرا ، وكل ما يتبها أن يحسن به ، ويرى ظاهره ، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر . ثم أمر أن يطلق الماء على الضيعة ، فأطلقوه ، فعمها وأغرقها ، وظهر في وسط الماء آثار القرى ، والنخل والسدر ، وكان يريد بذلك آثار العمران بادية ، فيعود أدراجه ، ولكنه كان أشد حيلة من أبي أيوب ، فلم تجز عليه حيلته ، فأقام أربعين يوما حتى غاض الماء ، وجفت الأرض ، ثم ركب ووقف على الضيعة ، وتبين كذب أبي أيوب وانصرف ، ولم يقل شيئا إلى أن عاد إلى بغداد ، وأوقع به كما سيأتي .

كراه كثير من الرؤساء والمتقدمين في الدولة أبا أيوب ، ووقفوا على كثير مما كان يأتيه من الأعمال السيئة هو ومن حوله من أقاربه وخواصه ، فأتاح لهم فرصة السعاية عليه عند الربيع ، وحمله على مكروهه ، وأثبتوا له ما قدموا له من أخبار ، بآذلة لا تقبل شكوا ولا تائلا ؛ فذلك هو الربيع يشخصه

المنصور معه حينما خرج إلى الأهواز ، ليشاهد الضيعة التي استصلحها أبو أيوب لابنه ، والمنصور يشتهي هناك سمكا شيبا ، فيعده له أبو أيوب عند عجائز الأهواز اللاتي يحسن صنعة السمك وتهيته ، فيتقبل المنصور ذلك ، ويأذن له في صنعه ، ولكنه لا يلبث أن ينهض من المجلس ، ويدعو الربيع ليصب عليه الماء حتى يغسل وجهه ، فتحضر إذ ذاك سلال مليئة بألوان من الخبز ، وضروب من الرقاق ، وصنوف من السمك ، ولكن الربيع صديق أبي أيوب ، يجد الفرصة سانحة للتكلم مع المنصور في شأن أبي أيوب بكلام فيه حيلة له ، وسمى على أبي أيوب ، فيقول « يا أمير المؤمنين : تعلم أني غير مستبطن لسليمان ، وإنه مني لعل صداقة وهدوء ، ولكن أمير المؤمنين آثر عندي من نفسي ، وقد علم سليمان ما يريد أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دس له في هذا الطعام شيئا ؟ » وجد هذا الكلام موضعاً في نفس المنصور ، فوقر فيها وتمكن . ولقي صدرا رجا يهش له ويقبله ، وانطلق لسان الخليفة يشكره وإطلاعه على امر في نفسه ما كان يعلمه أحد من قبل ، فقال : « بارك الله عليك يا ربيع ، وأحسن جزاءك ، إنه ما دخل رأسي بما يأتي من عند سليمان من اللطاف شيء منذ كذا وكذا من الدهر ، فلا يسمعن منك هذا بعد . » فالخليفة يقبل نصيحة الربيع يشكره ، ويطلعه على ما في نفسه من ناحية أبي أيوب ، ثم يدعو بطعام آخر غير الطعام الذي أعده أبو أيوب .

وما كان ذلك فقط من الربيع فإنه كان لا يفتر عن حمل كل ما يصل إليه من الاخبار عن أبي أيوب ليوغر صدر المنصور — فهو الذي كان يحمل كلام أبان ابن صدقة كاتب أبي أيوب ، فإن كان يأتي الربيع ، وينقل إليه أخبار أبي أيوب الذي كان يقضى معه نهاره كله ، ولم يفداً بأبو أيوب حرصه الشديد ، إذ كان يترك

غلبانه يصحبون أبان عند انصرافه حتى يصل إلى داره، ولكن أبان كان يخرج إلى الربيع بعد أن يعود الغلمان إلى سيدهم، ويبلغه ما يريد - أما الربيع فإنه كان يوصل هذه الأخبار إلى المنصور، فيعجب المنصور، ويقول: من أين هذا؟ فيقول: من أبان بن صدقة. فلما علم أبو أيوب بذلك، غائب أبان، بفرق هذا عليه، وأعلمه أنه فعل ما وصل إليه، فندم أبو أيوب، وعض على يانه، وقال: فعلتها!!!، أخرج فلا تقربني، فخرج ولكن بعد أن آذاه وأذاع سره.

وكان أبو أيوب لا يتورع أن يشي عند الخليفة بكل من يتصل به. ومن هؤلاء أبو دلالة الشاعر المشهور، وشاعر المنصور المختص به والذي كان يصله، ويستطيب مجالسته، ومناذمته، ونوادره. حتى كان لا يبخل عليه كما يبخل على غيره من الشعراء، وكان يتجاوز عن هفواته للطب محله عنده.

وكان أبو أيوب يشنوه، فأراد أن يفسد ما بينه وبين المنصور، فأتماه من ناحية الدين، لأن أبا دلالة كان « فاسد الدين ردي. المذهب، مرتكباً للحارم، مضيعاً للفروض، مجاهراً بذلك » لذلك لم يتعفف أبو أيوب عن الوشاية به، فهو يدخل على أبي جعفر، ويقول له: أن أبادلالة منعكف على الخمر، فما يحضر صلاة ولا مسجداً، وقد أفسد فتیان العسكر، فلو أمرته بالصلاة معك، لأجرت فيه وفي غيره من فتیان عسكرك بقطعه عنهم، يسمع ذلك المنصور، فيغضب من شاعره المختص به، والمختص بعطاياه وجوائزه، فلا يكاد يراه حتى ينهره على مجونه، ولا يجدي عنده استكاثته وتضرعه وتصله بما نسب إليه، لأنه شارف باب قبره، فيخوره أو تفوته صلاة الظهر والغصير في مسجده، وإلا فإنه يحسن أدبه، ويطلب حبه، فلم يجد أبو دلالة مناصاً من لزوم المسجد، فتقل ذلك عليه فكتب هذا شعراً ودفعه إلى المهدي: فأوصل هذا إلى أبيه، فلما قرأه أعجبه فكأهته ومرحه، فأعفاه من الصلاة معه.

وأخلفه أن يصل الأوقات كلها في مسجد قبيلته، وبما قاله في القصيدة التي
رفعها إليه:

لم تعلم أن الخليفة لذي مسجد والقصر، مالى والقصر ا
أصلى به الأولى جميعا وعصرها فويل من الأولى وويل من العصر
أصليهما بالكراهة في غير مسجدي فالى في الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان في قومي مساجد حجة ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلفني من بعد ما شئت خطبة يحط بها عنى الثقيل من الوزر
وما ضره والله يغفر ذنبيه لو أن ذنوب العالمين على ظهري
مهدب الأغانى - ٩ ص ٢٤ .

فهذا أبو أيوب غلب عليه طبعه، فوشى بأبي دلالة، وهو يعلم أن له عند
المنصور منزلة خاصة، لا يتمتع بها شاعر غيره، ولكنه يخرج من ذلك بالحسبان
المبين، فإنه إن أفلح في إغضب المنصور على أبي دلالة أياماً، فإن أبادلأمة لم
يلبث أن عاد إلى منزلته عند المنصور، وساء رأيه في أبي أيوب، حتى كان
من الساعين عليه .

وذلك عمرو بن عبيد، العالم الواعظ، شيخ المعتزلة ومفتيها، يعظ المنصور
والمنصور يحبه ويحترمه ويقدمه، فيذمهاه وخارج من حضر تهمرة، قابله أبو أيوب
فقال له: يا أبا عثمان - أظنك قد ردعت هذا الرجل، فقال: نعم، وقد حضنته
على أهل الكوفة وأهل البصرة، فإن استطعت أن تعينه بخير فافعل، وكفى
بأمة شراً أن تكون أنت المدير لأمرها .

فذلك عمرو بن عبيد، ومقامه من المنصور مقامه، ومنزلته من العامة
والخاصة منزلته، يرى أن الأمة يكفيا شراً أن يكون أبو أيوب المويباني هو
الذي يتولى أمرها .

« وكانت زلات أبي أيوب لا تقف عند حد . وقد يكون من أشعها وأفظعها
 أنه كان للنصور قتي من زوجة أهوازية، تزوجها حين كان محتفيا في الأهواز، وكان
 قد ترك مع أمه، ثم عاد إليه، وتعرف عليه بعد أن ولي الخلافة، وأسلمه إلى أبي أيوب،
 وأمره أن يقوم على تربيته وخدمته، كما لو قام بخدمة ولده وتربيته، ثم أمر
 الزبيح أن يدخله عليه من غير إذن، وأمر الولد أن يسكر إليه كل يوم نصفه
 المورياتي إليه، وخصص له دارا، وأوسع له من كل شيء، فعاش في نعيم مقيم
 وجار يغدو كل يوم إلى الخليفة ويروح عنه مسرورا مقتبلا حتى خص به
 جدا؛ وكان الولد عاقلا ذكيا ليبيا كاملا، عرف ذلك منه أبوه، فكان يخلو
 معه، ويقف على شيء أو أشياء مما عنده؛ وكان المورياتي يحاول أن يقف على
 شيء مما يدور بين القتي وبين أبيه، فكان القتي يضن عليه بذلك، ولا يظهره
 على شيء أبدا، فيقول له: إن أمير المؤمنين لا يكتمن شيئا، فيقول القتي: «فما
 حاجتك إلى هذا عندي إذن؟» .

أصر القتي على ألا يوح بشيء، وألح المورياتي في أن يعرف شيئا، فلم
 يظهر، فاستوحش منه، وثقل عليه مكانه، وأبغضه فدنس له سما في طعام أكله
 فمات ١١، وأخبر المنصور أن ابنه مات فجأة، فلما انصرف قال المنصور: قتلني
 الله إن لم أقتلك به .

•••

أحسن أبو أيوب أن زلاته كثرت، وأن مركزه عند الخليفة أصبح مزعزعا،
 وأنه قد لا يفلت منه، فامتلا قلبه رعبا منه، وأصبح يذعر لكل شيء، فلا
 يتهنأ براحة، ولا يتلذذ بطعام ولا شراب، ولا يطمئن في نوم، ولا يطيب له
 مجلس أُنس، ولا يعتز بسلطان ولا يستقر على حال — فذلك الذي طار في
 الأفاق ذكره، حتى أصبح الناس يتجرون في اسمه، ويتيمينون به، فيزرعون
 باسمه مزارعهم، ليرهبهم الناس، فلا يعتدون عليهم، ثم يقسمون الغلات بينهم
 (٥)

وبينه — ذلك الذي بلغ شأنه ما بلغ ، يأتيه يوما رسول أبي جعفر وهو في مجلسه ، فامتقع لونه ، وتغير ومضى إليه ، ففجع أصحابه ، وعجبوا من ذلك فلما عاد إليهم سالما عرف أنهم همسوا بما لحقته من اضطراب وتغير حينما أتاه رسول الخليفة ، فخدمهم في ذلك ، وضرب لهم مثلا يجرى على السنة العامة وهو أن البازي قال للديك يوما : ماشي أقل وفاء منك ، لأن أهلك أخذوك في بيضة ، فخدموك وخرجت على أيديهم ، وأطعموك في أكفهم ، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت ، جعلت لا يدنو واحد منهم إلا طرت بمنه ويسرة ، وصحت وصوت ، وأنا أخذت من الجبال كبيرا ، فعلموني وألقوني ، ثم يحلون عني ، فأخذ صيدى وأجى . إلى صاحبي . فقال له الديك : لورأيت في سفاتهم من البراة مثل الذي رأيت فيما من الديكة ، كنت شرامى .

وبعد أن صرب هذا المثل قال لجلسائه . ولكنتكم لو كنتم تعلمون ما عليه ، لم تتعجبوا من خوفي مع ماترون من تمكني .

ولو سألت نفسك ما الذي كان يعله أبو أيوب من شأنه عند المنصور ؟ إن أخطأني الظن ، فلن يخطئني أن من هذا الذي يعله : تلك الأخبار التي توالى إلى المنصور من الربيع وغير الربيع ، فوقر في نفسه منها أشياء وأشياء لا يمكن أن يغفرها له ، فهو يتوقع الشر في كل وقت ، وجعل المنصور يخرج منه ، ويحتاط في معاملته — فلا يطعم طعامه ، ولا يأتس به في مجلسه ، ولا يدعوه لحضور سمراه ، ولا يطلعه على المهم من أمور دولته — فإنه خرج إلى قنشرين ليقيم فيها ، ويرسل الأمداد منها إلى أفريقيا حينما خرج عليه أهلها ولكنه كتم تدبيره . وأظهر أنه مسافر إلى ناحية لم يظهرها ولم يبينها ، وأمر بالاستعداد ، ولم يعرف أحدا القصد . فلما تناكر ذلك أبو أيوب وبعض رفاقه ، رجوا بالظنون ، فلم يصيبوا شيئا ، ومع ذلك لم يقدم على مسأله أبو أيوب ، ولم يجرؤ على تعرف ذلك منه .

اجتمعت الأسباب لدى المنصور على هزيمة نكبة أبي أيوب - فقد علم عنه علم اليقين أنه يرتشي، وأنه شره في جمع المال، وأنه ولي أهله وخلصته الأعمال، وأنه دلس عليه في ضيعة الأهواز، وأنه وشى عنده بأبي دلامة شاعره المختص به، وأنه ساءت فيه شهادة عمرو بن عبيد، وأنه قتل ابنه الأهوازي - كل هذه الأسباب مجتمعة حطت منزلته عند المنصور، ولم يشفع فيه ما كان متصفا به من ظرف ولباقة وكياسة وحسن تأت للأموار. فصمم على أن يتكبه ويتكب أهله.

لأنقطن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذبا ومن أكثر شهامة من المنصور، واحزم منه، وأكثر تحمينا للقرص، ولا سيما في المهم من الأمور؟ فإنه حينما أراد قتله، قال له: «يا خوزي أكننت أمنا من أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك، فيكون جراؤك في العاجل إراقة دمك، واستباحة نعمتك، وفي الأجل حلول دار الفاسقين، وماوى الظالمين الفاكسين ١١٩». فقال: «إن للثم فلتات ترجع بالندم، ولك من رسول الله ﷺ عدل السياسة، وشرف القرابة، فأقلني». قال المنصور: «لا يسعني مع عظيم جرمك، وجميل ذنبك، إقالتك ولا العفو عنك؛ لأنك اعترفت المذنب، وما لا يسع معه عفو».

وصمم المنصور على قتله وقتل جميع من يتصلون به من إخوة وبنى إخوة وحدث في أثناء الكلام عنه أن ملكا من الملوك كان يسائر وزيره إليه، فغضبت دابة الوزير رجل الملك، فغضب وأمر بقطع رجل الوزير، فقطعت ثم ندم فأمر بمعالجته حتى برى، ثم قال الملك في نفسه: «هذا لا يجنبني أبدا وقد قطعت رجله، والأجمل به أن يتخلص منه بقتله، وبعد أن ضرب هذا المثل قال: وأهل هذا الوزير لا يجنبوني أبدا ولا بد من قتلهم جميعا».

ولما هم بنكبتة حبسه وحبس أخاه وبنى أخيه، ووقع به ما كان ينتظره

بعد أن علا حتى استوى على الذروة ، فكان لابد أن يهوى هويًا سريعًا
يعنى عليه .

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع .
وتلك سنة الله في خلقه — هذا صاعد ، وذلك هابط ، وهذا ينبي ، وغيره
يهدم . فإذا انتهى الصاعد إلى الغاية ، أو أشرف عليها كان لابد أن يهبط من
حيث صعد ، وإذا بنى الباني حتى انتهى من بيته أو كاد أن ينتهى منها —
كان مصيرها الهدم حتمًا .

إذا تم شيء بدأ نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم
وهذا أبو أيوب ، بلغ ما بلغ في دولة المنصور حتى كان هو المقرب ،
والمقدم ، والرئيس ، والوزير ، والأمير ، والتأهي ، والمستشار ، والمشير ، وصاحب الأمر
النافذ والكلمة المسموعة ، وذا المهابة والجلال ، وأحس هو أن نعمته قد تمت
وأنها على وشك أن تزول ، فإن رجلا ممن كانوا يتجرون باسمه ، حضر يوما
ودخل عليه وهو لا يعرفه ، فجلس إلى أن خف الناس ، ثم دنا منه وأخبره
أنه الأهوazy الذي زاره منذ عام ، واستأذنه في أن يعيره اسمه ليجمله على
ضيعة ، لأن العمال يحملون عليه فيها ، ويتناهيون غلتها ولا يتركون له شيئا ،
وإن هو أعاره اسمه — تهبوه ولم يدنوا من المزرعة ، وقبل أن يحمل إليه في
كل سنة مئة ألف درهم في مقابل ذلك ، فوهب له اسمه يفعل به ما بدا له ، فلما
حال الحول ، وأغلت الضيعة ، حمل إليه المال مقابل انتفاعه باسمه .
فلما سمع أبو أيوب القصة أخذ المال ووضع بين يديه ، وانصرف الرجل
شاكرا داعيا ، أما أبو أيوب فإنه استعبر ، وانذفع بيكي ويجمش بالبكاء ،
ويبتفض انتفاض العصفور بلله القطر ، فتعجب الحاضرون من أهله ،
وقالوا له : « ما رأينا موضع سرور وفرح عقبه بكاء وحزن غير هذا »
فقال لهم : « ويحكم ، إن شيئا بلغ هذا من إقباله كيف يكون إدماره ؟ »

فهو في هذا يحس سوء العاقبة. ونحن وإن كنا نعتقد أنه لو أحسن القيام على ما عليه من الأمور، لظال نعيمه، وبقيت معه سمادته، ولكنه أحس أنه ارتكب أمورا ما كان يجدر بمثله أن يرتكبها وأن من يفعل ذلك لا بد أن يفتضح أمره، فكان النتيجة الطبيعية لمثل هذا أن يجعل الله به ولولا أن الله عجل به لعجل هو بدولة ناشئة كانت في مهدها، وقضى عليها، ومن العدل أن العادر يقدر به، وأن الخائن يؤخذ بخيائته، ولو ترك مثل هذا على وجه الأرض، يعيش بها يعيش الناس، وينعم بما ينعمون — لكان حربا على سيده يتأمر عليه ويسئ إليه، ويكون مصدر فتن وقلقل وثورات ويجد عقولا كثيرة مهيأة لمعوته والأخذ بيده ويدفع أصحابها ويقف من ورائهم بحر كم ويدبر لهم، ويجد ذلك في الطالبيين أو الأمويين، أو بعض العباسيين، أو فيهم جميعا، فكان من الخير لسلامة الدولة وسلامة صاحبها، أن يحول بينه وبين الناس، فلا يقول لهم، ولا يقال له، ولا يسعى عليه وإن لم يتمكن صاحب السلطان من تلك الخيلولة كان عليه أن يجرمه الحياة محافظة على سلطانه وإبقائه على دولته. والأخذ بالحزم في مثل تلك الأمور أحدى على الناس جميعا، لا فرق في ذلك بين الراعي ورعيته، وإن تحرك له أحد من قومه، أو حاول أن يشغب، ضرب على يده ضربة لا يقوم منها، وليس في ذلك قسوة يتهم بها صاحب السلطان لأن الأمور لا تستقيم إذا ترك مثل هؤلاء يعشرون. وعامة الناس لا يعرفون مواطن الخير، ولا يميزونها من مواطن الشر، فليتركوا الأمور تجرى بيد صاحبها، والله يجزى على يديه الخير ما دام ذلك رائده.

وإن د على الملك ألا يجاوز بأهل الجرائم عقوبة جرائمهم فإن لكل ذنب عقوبة — إما في الشريعة والثروايس، وإما في الأجماع والإصلاح، فنترك العقوبة في موضعها، فبالجورى إن يعاقب من لا ذنب له، وليس بين ترك العقوبة (إذا وجدت) وعقوبة من لا ذنب له = فرق. وإيها وضع الله

المملوك بهذه المواضع الرفيعة ، ليقوموا كل ميل ، ويدعموا كل إقامة (١) وقد
يختلف في تقدير العقوبة ، وفي تقدير جزائها . أما ومرتكب الجريمة رأس
كبير يخشى منه إذا ترك ، ويخشى منه إذا كان حيا ، فلتسكن سلامة الدولة في
التخلص منه لأنه أحسن إليه فكفر بالإحسان وأنعم عليه فلم يراع حرمة الإنعام
والمصور كان لا يمين على أحد أحسن إليه مادامت له طاعة ، وبقيت فيه ولاية فاذا
خرج من الطاعة إلى المنصية وعدل عن النصيحة إلى المكارمة وأظهر الولاء وأبطن
غيره ذكره بلامه عنده وقلة شكره ووفائه ، ثم يوقع به ، ولو أن أحداً غير
أبي أيوب فعل ما فعل ، لجاز أن يشنع فيه شيء من عمله ، أو حسن تأتبه
للأمور ، أر أن يقبض الله له من يرحمه ، ويدوب له قلبه حسرة عليه
وشفقة به .

وقد يرتكب الذنب الواحد أكثر من شخص واحد . وعندمواخذتهم
بما ارتكبوا من ذنب تجد كلا منهم توقع عليه عقوبة تختلف عن التي توقع
على غيره ، وذلك يكون تبعا لاختلاف أقدار الناس وأنواع أعمالهم . وإن
خليفة مثل المنصور ، كان ذا أكثر الأمور عنده معرفة أحوال الناس ، حتى
عرف الزلى من الغدو ، والمداجي من المسالم ، فساس الرعية ولبسها وهو من
معرفة على مثل وضع النهار ، - لحزى أن يأخذ المذنب بما يستحق ، وقد
استحق أبو أيوب عنده القتل ، وهو لم يقدم على ذلك إلا بعد أن لحص عن
أسراره ودقيق أخباره ، حتى لسكان يتعرف ميثه ومقبله وحديثه مع خاصته ،
وما كان المنصور ليغفر لأبي أيوب ، وهو الذي يرى أن من حق الملك أن
يكتم أسراره عن الأب والام والأخ والزوجة والصدیق ، فان الملك يحتمل
كل منقوص وما نوب ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن في ملكه ،
وصفة الآخر أن يذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يخونه في حرمه ، (٢)

(١) التاج ص ١٦

(٢) التاج ص ٩٤

فإذا كان عبد الله بن رفاعة يقول: إذا دخلت الهدية من الباب خرجت
الامانة من الطاق. وإذا كان عبد الله بن مروان يصرف كاتبه عن عمله، لأنه
قبل الهدية، ويقول له: «إن كنت قبيلت هدية لاتنوي مكافأة المهدي لها =
إنك لثيم ذني»، وإن كنت قبيلتها تستكفي وجلال لم تكن تستكفيه لولاها =
إنك لخائن، وإن كنت نوبت تعويض المهدي لها = إنك لثيم ذني، وإن
كنت قبيلتها تستكفيه لولاها = إنك لخائن، وإن كنت نوبت تعويض المهدي
عن هديته، والاتخون أمانته، ولا تثلم له ديناً = فلقد قبلت ما بئط عليك
لسان معامليك، وأطمع فيك سائر مجاوريك، وسلبك هبة سلطانك، وليس
منى من أتى أمرالم بخل فيه من لوم أو دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع. ولم
يشفع عنده ما اعتذر به الكاتب من أن الأمور مستقيمة، والأموال داراة،
والعمال محمودون، والخراج موفر، وذلك ما بهم الحاكم من كاتبه.
إذا كان ذلك كذلك، فما ظنك بالمصور، وقد تيقن أن أبا أيوب اختانه،
واعتدى على الأمانة التي حملها، ولم يراع حرمة الخلافة، ولا حرمة الولاء،
وحلب الدر حتى انقطع على يديه أو كاد ؟؟

•••

حبس المصور أبا أيوب وأهله جميعاً، وطالبهم بالأموال، وأثقل عليهم
وعذبهم حتى نال منهم. ومات أبو أيوب سنة ١٥٤ هـ، وقتل بنو أخيه جميعاً.
وفيه يقول الشاعر:

فاتق الله وارض بالقصد ظا وتباعد عن موبقات الذنوب
قد رأيت الذي أدالت ونالت وقعة الدهر من أبي أيوب

محمد أحمد برانس

فهرست

العدد الأول من السنة الثامنة

صفحة	التحرير
٣	مقدمة
٥	مسلم بن الوليد «حياته وشعره» للامتاذ محمد هاشم عطية المدرس بدارالعلوم
٣٠	على هاشم النقدي «سيد قطب
٦٥	«بعض سمات الشعر الحديث» تيسير القراءة والكتابة
٦٦	من الوزراء الإسلاميين أبو أيوب الموزيني
	بمراقبة الثقافة العامة
	الشيخ عبد الفتاح خليفة
	المفتش بوزارة المعارف
	محمد أحمد برانق
	المدرس بالأبراهيمية الثانوية